الفصل الثالث

الاستشراق و الاستعمار

مقدمة:

الغزو الصليبي كان استعماراً وهو حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب وكذلك الاستعمار الحديث الذي سعي لإسقاط الخلافة العثمانية ليستعمر الدول التابعة لها,وكذلك كان الاستشراق شكلاً من أشكال الحرب على الإسلام في مراحل عديدة منه يهدف لسيطرة الغرب على الشرق.

تعريف الاستعمار:

الاستعمار لفظة مشتقة من عمر- أستعمر بمعني عمر المكان فالأصل اللغوي يفيد معني التعمير وتحقيق العمران أما التعريف الذي ورد في المعجم الوسيط فهو استيلاء دولة أو شعب على دولة أخري وشعب آخر لنهب ثرواته وتسخير طاقاته وتختلف أشكال الاستعمار ربما يكون استعمار عسكري أو اقتصادي أوثقافي.

الاستشراق مؤسسات أكاديمية ضخمة ومعاهد وجامعات وجمعيات استشراقية وجغرافية والاستعمار هيئات حكومية وعسكرية واقتصادية واجتماعية اتفقوا معاً للحصول على معلومات عن الشرق يستفيد منها الغرب الأوربي الاستعماري.

التنافس الاستعماري بين انجلترا وفرنسا حول الشرق .

الاستعماري البريطاني لورد سالسبري قال أن إنجلترا كان أمامها 3 اختيارات هي :

1-التخلي لفرنسا عن الشرق.

2- الدخول في حرب ضد فرنسا.

3- مشاركة فرنسا في استعمار الشرق واقتسام غنائمه والمشاركة في الدراسات الاستشراقية وجمع المعلومات وتبادلها جمعت وثائق ومخطوطات وكتب نادرة عن الشرق وتم نقلها إلى لندن وباريس .

-دراسات مقارنة الأديان واللغات زادت في القرنيين 19 و20 م وقام بها مستشرقون أمثال وليام جونزي, ودي ساسي, وترانزيوب, وجاكوب جريم.

-محاولة دراسة المخطوطات لرسم صورة مشوهه عن الإسلام والمسلمين.

-ترجمات وتقارير لصناع القرار السياسي في حكومات الغرب تجاه العالم الإسلامي.

ومن هنا يتضح أن الإستشراق ارتبط بالاستعمار وجمع المعلومات اللازمة عن الشرق وترجم النصوص ووضع تفسير للحضاراتالشرقية والتقاليد الاجتماعية لفهم شعوب الشرق وكيفية التعامل معها ومن هنا كان المستشرقون خبراء في شؤون الشرق الأوسط للحكومات الاستعمارية وعملاء للحكومات وشركاء في صنع القرار,مقولة سنوك هرجرونيه عن ضرورة الاستشراق للاستعمار (كلما توثقت العلاقة بين أوربا والشرق الإسلامي كلما زاد عدد البلاد الإسلامية التي تقع تحت السيادة الأوربية وبالتالي زاد أهمية دراسة الحياة الفكرية والشريعة الإسلامية).

الدراسات الاستشراقية سبقت الاستعمار ومهدت له حيث مهدت فرنسا لاحتلال الجزائر عام 1830م بدراسات لمدة 20 عام عن الحفائر والآثار والجغرافيا والخرائط – وأيضا احتلال الحملة الفرنسية عام 1898م لمصر وصحبت الحملة أول المستشرقين أمثال سلفستر دي ساسي(1758-1838م) مما جهل فرنسا رائدة في الاستشراق في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي وأثمر ذلك باحتلال الجزائر وبلاد إسلامية عديدة في أسيا وإفريقيا وكذلك سبق احتلال بريطانيا لمصر دراسات استشراقية من أمثال دراسات المستشرقين ادواردلين ووليام جونز.

كما اعتمدت أمريكا على مؤسسات في الجامعات ووسائل الإعلام للاستفادة من خبرة المستشرقين الفرنسيين والبريطانيين مثل المستشرق البريطاني جب "الذي قدم محاضرات في الجامعة الأمريكية ثم عين مدير مركز هارفارد للدراسات الشرق الأوسط في منتصف الخمسينات وأخذ برائيه في دوائر الحكومة الأمريكية,وتوسع مجال الاستشراق في أوربا وأمريكا منذ القرن التاسع عشر الميلادي .

العلاقة بين الاستعمار و الاستشراق:

العلاقة بين الاستشراق والاستعمار تتمثل في ثلاثة وجوه هي:

1- الإستشراق سبق ومهد للاستعمار

2- الإستشراق وليد الاستعمار

3- الإستشراق زامن الاستعمار

ولكن الدلائل تؤيد الرأي الأول القائل بأن الاستشراق مهد للاستعمار لأسباب هي:

أ- إن الاستشراق بدأ رسمياً عام 1312م بقرار مجمع فينا الكنسي بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية والشرقية في الجامعات الأوربية وإن كانت هناك إشارات أخري لبدايته قبل هذا التاريخ,بينما بداية الاستعمار الحديث الفعلي تأتي في أواخر القرن السادس عشر الميلادي وبداية القرن السابع عشر الميلادي.

ب-أن الاستشراق عالج الفكر الإسلامي من خلال إضعاف القيم الإسلامية وتمجيد القيم المسيحية بطرق غير مباشرة والتشكيك في القرآن والسنة وإحلال مفاهيم جديدة كالقومية والشعوبية والعرقية والدعوة لتبني اللهجات المحلية وكل ذلك يساعد الاستعمار ويمهد له.

مستشرقون ساعدوا حركة الاستعمار:

كان بعض المستشرقون ساعداً قوياً في حركة الاستعمار استعملتهم حكوماتهم كمستشارين لها في وزارات الاستعمار الخارجية ومن أمثلة هؤلاء:

- أنتوني إيدن وزير خارجية انجلترا وكان لايتخذ قراراً يتعلق بالشرق الإسلامي حتى يدعوا مجموعة من المستشرقين ويستعين بهم في اتخاذ قراراته وهو الذي حرك العدوان الثلاثي ضد مصر عام 1956م.

- سلفستر دي ساسيSacy. S.De(1758-1838م) مستشرق فرنسي ولد في باريس درس في المنزل درس العربية والعبرية والفارسية والتركية في عام 1778م عينه الملك عضواً في جمعية نشر كنوز المخطوطات الشرقية في المكتبة الوطنية بباريس , حقق أربع كتب عربية عن فتح اليمن ترجم البيان الموجه للجزائريين عند الغزو الفرنسي للجزائرعام1830م وانتخب رئيساً للجمعية الأسيوية عام 1822م آلف كتاباً عن الدروز ولقب بالبارون نظير خدماته وجهوده[22].

- ارنست رينان.Renan.E (1823-1892م) فرنسي درس في المدارس اللاهوتيه وبرع في اللغات الشرقية وذهب للبنان حيث صنف كتابه حياة يسوع وله 78 مصنف أغلبها في الفلسفة والأدب والدين,عمل مخططاًللاستعمار تخرج في مدارس اللاهوت (دينية مسيحية) له إعمال عن السامية قال في محاضرة له في السربون عام 1883م تحت عنوان "الإسلام والعلم" والذي قال

فيها "إن ما يميز المسلم هو كراهيته للعلم والاقتناع بأن البحث فيه لا جدوى منه ...وعلم التاريخ لكونه ينطبق على عصور ما قبل الإسلام فيمكنه إعادة إحياء الضلالات القديمة"[23].

- لويس ماسينيون.Massignon, I(1883-1962م) ولد في ضواحي باريس قام برحلة إلى الجزائر اشترك في مؤتمر المستشرقين الرابع عام 1905م في الجزائر وحصل على الدكتوراه برسالة عن " إلام الحلاج " من السربون 1922م[24].وعمل مستشاراًلوزارة المستعمرات الفرنسية لشمال إفريقيا وله أكثر من 650 كتاباً مطبوعاًمعظم أبحاث التصوف الإسلامي التي نشرت في دائرة المعارف الإسلامية بقلمه, وكان يركز في أبحاثه على الفرق الشيعية وحصل على وسام "صليب الحرب "وأسس جمعية "فرنسا المغرب "عام 1953م .

- هانوتو G.H anotaux فرنسي كان يوجه سياسة فرنسا في مستعمراتها في إفريقيا الإسلامية.

- اللورد كتشنر إنجليزي تولي قيادة الحملات إلى مصر والسودان وجنوب إفريقيا وعين رئيس أركان حرب في الهند ومعتمدا بريطانيا في مصر ووزيراً للحربية في بريطانيا

- اللورد كرزون بريطاني عين حاكماً للهند ومديراً لجامعة أكسفورد وتحمس لإقامة مدرسة للدراسات الشرقية تحولت فيما بعد لجامعة لندن.

- بارتولد وهو روسي الجنسية تخرج من جامعة بطرسبرج درس تاريخ آسيا الصغرى وعمل أستاذاً لتاريخ الشرق الإسلامي, و هو مؤسس مجلة ميرا سلام.

- كارل بيكر الألماني درس اللغة العربية شغل عدة مناصب في ألمانيا زمن الحرب العالمية الثانية وعمل مستشاراً في وزارة المعارف ثم وزيرا عام 1921م صاحب مجلة ديرا إسلام.

- سنوك هورغرونيه هولنداي تعلم على يد أستاذ يهودي كان يجيد العربية أثر في تشكيل السياسة الاستعمارية لهولندا في الهند الشرقية وشغل مناصب قيادية في السلطة الاستعمارية.

-ليفي بروفنسالLevi.Provencal مستشرق فرنسي ولد في الجزائر وعمل كضابط في الشؤون الإسلامية في المغرب وأنجز الدكتوراه في لغة جبلة شمال المغرب عام 1939م له دراسات شهيرة عن تاريخ الأندلس وتبرز روح الاستعمار في كتاباته خاصة في مجال الصراع القبلي بين العرب و البربر.

-لورانس العرب أو ادوارد لورنس ولد عام 1888م تعلم في كلية يسوع في أكسفورد وغادر بريطانيا لسوريا وفلسطين لدراسة القلاع الصليبية وكان ملماً باللغة العربية والتحق بمدرسة تابعة للإرسالية الأمريكية وعاش في سوريا 3 سنوات وعاد لإنجلترا قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى, أرسلته بريطانيا في بعثة استكشافية لسيناء لوضع خرائط لشبه جزيرة سيناء وأصدر كتاب بعنوان (صحارى رن) سخر معارفه الاستشراقية لخدمة الاستعمار البريطاني في الشرق الأوسط وعمل في قلم الاستخبارات البريطاني ووضع خطة احتلال سوريا سافر في بعثة لجدة لمساعدة الشريف حسين في الثورة العربية ضد تركيا واصدر كتاب بعنوان (أعمدة الحكمة السبعة) وفي نهاية حياته شعر بالندم حيال خداع العرب على يد الانجليز وخاصة بعد إصدار الإنجليز لوعد بلفور الذي منح أرض فلسطين العربية إلى اليهود المدعين.

- برنارد لويس (1916 م)Bernard Lewis[25]. والذي كتب دراسة عن "الأرشيف العثماني كمصدر لتاريخ البلاد العربية " وكتاب بعنوان "مصادر التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط منذ ظهور الإسلام حتى التاريخ الحديث", وأخر بعنوان "ملاحظات ووثائق من الأرشيف التركي "كما اهتم بدراسة الفرق والقوميات ومن الرسائل التي أشرف عليها "دراسات في التاريخ الاجتماعي للدولة الأموية و الذي وضع نفسه في خدمة الصهيونية الاستعمارية وتبرير قيام دولة إسرائيل في فلسطين وتبرع بمكتبته لمركز موشيه ديان في إسرائيل بعد وفاته .

استخدام الاستشراق من قبل المستعمرين:

استخدموهم للتبرير للسيادة الاستعمارية قبل حدوث الاستعمار,كما كان التراث الاستشراقي دليلاً الاستعمار في شعاب الشرق فقد كان الاستشراق ركيزة لاستعمار تفوق الركائز الأخرى كالقوة العسكرية مثلاً, وان كان الاستعمار قد انتهي ألا أن الاستشراق مستمر.

مما سبق يتضح صحة الرأي القائل بأن الاستشراق سبق الاستعمار ومهد له.

ومما سبق نستخلص أن الاستعمار قد أفاد الإستشراق في عدةأوجه وهي:

1- أوحي الاستعمار للحكومات بالإكثار من إقامة مدارس تهتم بالدراسات الشرقية.

2- شجع الحكومات الغربية على تقديم دعم مالي سخي للاستشراق.

3- حضور كبار المسؤليين في الحكومات الغربية لمؤتمرات المستشرقيين.

4- اشتراك الحكومات في دوريات المستشرقين واقتناء منشوراتهم وأبحاثهم.
5- تخصيص جوائز الدولة التقديرية للمستشرقين.